زينب شقليط

إدراك

ليلة دافئة من ليالي الشتاء، في شقة فاخرة الأثاث ذات ديكورات جميلة التصميم، تُضيء غرفة المعيشة بإضاءة خافتة صادرة من التلفاز الكبير، تجلس نور وحدها حيث خرج الجميع، وآثرت هى المكوث، تشعر بالفراغ. وقد ملت من متابعة حسابها على الفيس بوك. وأمضت أيامًا من إجازتها الدراسية في نزهات ورحلات مع صديقاتها، ولم يبق شيءٌ لتفعله، جلست أمام التلفاز ويدها على الريموت تضغط بلا وعي. تنتقل من هذه القناة لتلك. استوقفتها أناقة إحدى المذيعات ومدى تناسق ما ترتديه. أخذت تركز على تفاصيلها وتراجع ما تعرفه عن موضة هذا العام. أثارها ترحاب المذيعة بضيفها خبير الصحة النفسية. غير مبالية بما يقول إلا أنها ظلت تتابع حديث المذيعة بإعجاب وهي تسأل ضيفها عن الطريقة المُثلى للتعامل مع المشاعر المختلفة التي نمر بها طوال الوقت.....

ضحكت نور بسخرية من سؤال المذيعة منتظرة بتهكم رد ضيفها المحتمل عن تجاهل المشاعر السلبية والتمسك طوال الوقت بالإيجابية، فهكذا يتحدثون.....

إلا أنه خالف توقعاتها قائلا: علينا ألا نتجاهل أي شعور، فهذه أكبر خطيئة في حق نفسك، ساعدي نفسك ألا تتركي موقع ألمك دون معالجة حتى يخرج ويرحل بسلام، فالمشاعر عزيزتي غير صالحة للتخزين، إنما فقط تساعدنا على التكيف مع عوارض الواقع بما فيه من تقلبات، فيجب أن تراقبي صوتك الداخلى الذي يحدثك طوال الوقت، واحتويه لأنه صوت نفسك التي تخبرك بأحزانها وأفراحها....

شعرت بضيق في صدرها جعلها تغلق التلفاز بتوتر ومضت إلى غرفتها. جلست طويلا تتأمل المرآة لا تشعر بشيء. تتأمل صورتها، تبدو لأول وهلة كالتائهة لا تشعر بالوقت ولا تدري المكان، رغم أنها جالسة في مكانها المعتاد أمامها وأغراضها التي رافقتها منذ طفولتها وترافقها شبابها، لكنها لأول مرة لا تشعر أنها وحدها، ربما تشعر بالصدمة من اكتشافها أنها ولأول مرة تنظر إلى نفسها.....

لطالما نظرت للمرآة لتهندم ثيابها وتصفف شعرها، لكنها كانت تنظر إلى أشياء أخرى غيرها.

نظرت لوجهها وكأنها لاتعرفه، لا تبدو الملامح مألوفة، لأول مرة تشعر أنها تريد أن تتحدث إلى نفسها في المرآة.....

أغمضت عينيها تستجمع شتات نفسها، وترتب أفكارها المبعثرة، تحاول أن تشعر بشيء من الشجاعة، تحاول أن تميز ذلك الصوت الداخلي الذي طالما تجاهلته، شعرت بالسخف مما تحاول أن تصل إليه قائلة: أي جنون هذا الذي أفعله؟

لكن لحظة..... ماهذا الذي أسمعه؟!

بدا الصوت رخيمًا حنونا الذي يتردد داخلها قائلا: افتحي عيونك وانظري إليّ، كم اشتقت إليك، فتحت عيونها سريعًا تنظر إلى انعكاس صورتها في المرآة، ولكن هذه المرة لمست شيئا مختلفا، لم تكن مجرد نظرات إلى نفس العيون التي طالما نظرت إليها لتخفيها بمساحيق التجميل، ولكنها رأت نفسها تحاول أن تشق إليها طريقا....

وجدت الدموع تتساقط من عينيها بلا إرادة، وبزغ ذلك الصوت ثانية داخلها:

أنا أول من يشعر بك، أول من يخاف عليك، وأكثر من يحبك، ولكنك تجاهلتني طوال الوقت حتى ظننت أنني لست بالوجود.....
شعرت نور بارتباك وهي تردد "طالما اهتممت بشكلك وملبسك، كيف لك أن تقولى إنني تجاهلتك؟!!"
تابعت نفسها الحديث بألم: طالما أردتك أن تسمعيني.. أن تشعرى بي، طالما طرقت بابك، وأنت مشغولة عنى، رغم أنك بالنسبة لي شغلي الشاغل.
شعرت نور بالحيرة متسائلة: كيف؟؟؟
استطردت نفسها: عندما شعرتِ بالغضب مرات ومرات، أردت أن أشكو لك كم تضايقت من هذا الموقف أو ذاك، أردت أن أعبر لكِ عن جم غضبي، ولكنك كنت دائمًا تتجاهلين نداءاتي، وكل ما أستطيع أن أفعله هو كتمان ما بداخلي، ولكن إلى متى؟؟؟؟
-لكم شعرتِ أنت بالكره والضيق والغيرة والخوف والحزن والألم، ولكنك لم تسمحي لي أبدًا بالشعور، لطالما أجبرتني على كتمان مشاعري ودموعي اعتبارًا لأشياء أقل قيمة مني.....
نظرت نور إلى المرآة ورأت عينيها وقد احتقنتا من الدموع، لم تستطع أن تتكلم شاعرة بالخجل، خفضت ناظريها قائلة: آسفة.. لم أكن أرى كل هذا، رجاءً تقبلي اعتذارى، لم تشعر بشيء إلا وقد أحاطت نفسها بذراعيها بأجمل ما يمكن أن يوصف بإحساس، ونظرت بامتنان إلى انعكاس صورتها في المرآة، تبسمت بإشراق، وشعرت بخفة في روحها، غدت تصحو من نومها أول ماتفعله تتطلع لنفسها الجميلة في المرآة، تغمر نفسها بكلمات الحب والرضا والتقبل التام.